المبحث الثالث

- الرسول الكريم ﷺ هو المثل الأعلى فى حياة المسلم.

إن الدارس لسيرة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجد بين يديه صورة المثل الأعلى فى كل شأن من شئون الحياة الفاضلة؛ كى يجعل منها دستورا يتمسك به ويسير عليه، وما من شك أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعْلى فى ناحية من نواحى الحياة فإنه واجد ذلك فى حياة الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى أنصع صورة، وعلى درجة من الكمال لم يبلغها غير رسول الله الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ[1] فى حال السلم والحرب؛ولذا جعله خالقه قدوة للبشرية كلها على اختلاف أجناسها وألوانها وألسنتها، يقول ربنا ـ جل علاه ـ:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2].

(١) فقه السيرة. د/ البوطى ص ١٤ ـ بتصرف.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

يقول شهيد الإسلام الأستاذ سيد قطب وهو يتحدث عن غزوة الأحزاب:

«وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرغم من الهول المرعب والضيق الْمُجْهِد مثابة الأمان للمسلين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان.

وإن دراسة موقفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الحادث الضخم لما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وتطلب نفسه القدوة الطيبة، ويذكر الله ولا ينساه. ا هـ. (١)

والأسوة ـ بكسر الهمزة وضمها ـ: اسم لما يؤتسى به، أى: يقتدى به ويعمل مثل عمله. وحق الأسوة أن يكون المؤتسى به هو القدوة؛ ولذلك فحرف (فى) جاء على أسلوب ما يسمى بالتجريد المفيد للمبالغة، إذ يجرد من الموصوف بصفة موصوف مثله ليكون كذاته، كقول أبى خالد الخارجى: وفى الرحمن للضعفاء كاف.

أى: الرحمن كاف. فالأصل: رسول الله أسوة، فقيل: فى رسول الله أسوة، وجعل متعلق الائتساء ذات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون وصف خاص يشمل الائتساء به فى أقواله بامتثال أوامره، واجتناب ما ينهى عنه، والائتساء بأفعاله

(١) فى ظلال القرآن، سيد قطب ج ٥ ص ٢٨٤١.

من الصبر والشجاعة والثبات، وفى الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبى ـ صلى عليه وسلم ـ وأنه الأسوة الحسنة لا محالة. ولكن ليس فيها تفصيل وتحديد لمراتب الائتساء، والواجب منه والمستحب[1]، ويقودنا الحديث عن هذه الآية إلى بيان أفعاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإيجاز.

أفعال النبى ﷺ

قسم العلماء أفعال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ثلاثة أقسام:

أولها: أعمال تتصل ببيان الشريعة: كصلاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصومه وحجه ومزارعته واقتراضه؛ فإن هذا النوع يكون شرعا متبعا. فالبيوع التى تولاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكون توليه لها دليلا على إباحتها، وماكان فيه من أعمال دينية يكون تفسيرا لمجمل القرآن.

وعلى ذلك نقول: إن أفعال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى تكون بيانا للشريعة قسمان:

أفعال هى بيان لمجملها، وأفعال فعلها يدل على إباحتها، وكلا القسمين يفيد العموم فى أحكامه، فلا يختص بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم.

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج ٢٠ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

القسم الثانى:ـ أفعال من النبى صلى ـ الله عليه وسلم ـ قام الدليل على أنها خاصة به، ومن ذلك التزوج بأكثر من أربع زوجات[1].

القسم الثالث:ـ أعمال يعملها بمقتضى الجِبِلَّة البشرية أو بمقتضى العادات الجارية فى بلاد العرب، كلبسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأكله، وما كان يتناوله من خلاله وطرق تناوله، وغير ذلك، فهذه أفعال كان يتولاها بمقتضى البشرية، والطبيعة الإنسانية، وعادات قومه. ومن الأمور ما اختلف فيه بعض العلماء، من حيث كون فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو تلبسه به كان من قبيل بيان الشرع، أو من قبيل العادات، كتربيته لحيته ـ عليه السلام ـ بمقدار قبضة اليد، فذهب كثير من أهل العلم إلى أنه من السنة المتبعة. واستدلوا على ذلك بقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**قصوا الشارب وأعفوا اللحي**»[2] فقالوا: إن هذا دليل على أن إبقاء اللحية لم يكن عادة بل كان من قبيل حكم شرعى.

---

(١) وكاكتفائه فى إثبات الدعوى بشهادة خزيمة وحده؛ لأن النصوص صريحة فى أن البينة شاهدان.

انظر علم أصول الفقه. عبد الوهاب خلاف ص ٤٤ دار القلم الكويت، ط ٦ سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م

(٢) ورد هذا الحديث بروايات كثيرة، فرواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الطهارة ـ (وفروا...) والبخارى فى اللباس، والنسائى فى الزينة (أرخوا) والترمذى فى الأدب، واللفظ الذى أثبته رواه البخارى فى اللباس، ومسلم فى الطهارة.

والذين قالوا: إنه من قبيل العادة ـ لا من قبيل البيان الشرعى ـ قرروا أن النهى لا يفيد اللزوم بالإجماع، وهو معلل بمنع التشبيه باليهود والأعاجم الذين كانوا يطيلون شواربهم ويحلقون لحاهم، وهذا يزكى أنه من قبيل العادة، وقد اختار هذا القول الشيخ محمد أبو زهرة[1]. ومن المستغرب بشأن هذا الرأى أنه شائع فى أواسط شيوخ ينتسبون إلى العلم، ومع قولهم هذا ـ أى أنها من قبيل العادة ـ يقدم أكثرهم على حلقها، مع أنه يفترض فى أهل العلم أن يتأسوا بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا جرم أنهم دعاة، والداعية قدوة لمن يدعوهم.

أهمية هذا الرأى هو أنه بموجب اعتبار اللحية سنة عادة فإنه يجيز حلقها طالما كانت السنن غير واجبة الأداء.

والمرتكز لرأى هؤلاء العلماء هو قاعدة أصولية أيضا، ولكن

«فى الأوامر» فالأوامر التى تصدر عن الله ـ عز وجل ـ أو عن رسوله مختلف فى مقتضياتها، أى: «إن كان الأصل فى الأمر أنه للوجوب»، ولا ينصرف عنه إلى الندْب أو غيره إلا بقرينة أو أن الأصل فيه أنه للندب، أو غير ذلك مما لا متسع لتفصيله هنا[2].

(١) انظر أصول الفقه، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربى ص ١١٥.

(٢) اختلف الأصوليون فى صيغة «افعل» فذهب فريق منهم إلى أنه حقيقه فى الوجوب فقط ـ ونسبه الإمام الشوكانى فى «إرشاد الفحول» إلى الجمهور، وقال: «وصححه ابن الحاجب والبيضاوى، قال الرازى: وهو الحق، وذكر الجوينى أنه مذهب الشافعى، قيل: وهو الذى أملاه الأشعرى على أصحابه » ا هـ (المقصد الرابع ـ مباحث الأمر ـ الفصل الثالث) أقول: وهو مذهب الظاهرية ،والسلفيين، وذهب الآمدى فى الإحكام إلى أن صيغة الأمر حقيقة فى الطلب، والقرائن هى التى تصرفه إلى مقتضاه، وهو خمسة عشر اعتبارا «انظر الإحكام فى أصول الأحكام ـ الأصل الرابع ـ النوع الثانى ـ الباب الأول ـ القسم الأول ـ المبحث الرابع المسألة الثانية، كما أن فى المسألة تفاصيل تراجع فى كتب الأصول: مبحث الأوامر والنواهى.

وقد اصطلح أهل الأصول على جعل التأسى لقبا لاتباع الرسول فى أعماله التى لم يطالب بها الأمة على وجه التشريع[1].

ويشرح العلامة ابن كثيرا لآية المتقدمة، وهى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] يقول: هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أقوالهوأفعا لهوأحوا له، ولهذ أ مر الله ـ تبارك وتعالى ـ الناس بالتأسى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الأحزاب فى صبره وصا برته ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه ـ عز وجل ـ صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم ا لدين، قال: ولهذا قال للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا و ظطربوا فى أمرهم يولا ا حزاب:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ـ صلى الله عليه وسلم؟! ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾[3].

---

(١) انظرالتحر يرالتنو ير ج ٢٠ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) تفسير ابن كثير ٣ ص ٤٠٦ وانظر زاد المسير فى علم لتفسير ج ٦ ص ٣٦٨.

والتأسى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو اتباع للقرآن الكريم؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يجسد القرآن بسلوكه القولى والعملى، وخير ما يصف لنا ذلك هو ما روى عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ حينما سئلت عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه ولم ـ فقالت: **«كان خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن، ثم قالت: أتقرأون سورة المؤمنين؟**

قلنا: نعم، فقالت ليزيد بن بابنوس: اقرأ، فقرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى بلغ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ الآيات(١).

وقد أثنى الله ـ تعالى ـ على خلق نبينا الكريم فى القرآن بقوله ـ جل شأنه ـ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

قال أهل العلم: المراد بالخلق العظيم هو الإسلام والدين، حكى ذلك الواحدى عن الأكثرين.

وقيل: هو القرآن، روى هذا عن الحسن والعوفى، وقال قتادة: هو ماكان يأتمر به من أمر الله وينتهى عما نهى الله عنه. قال الزجاج: إنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات من ١ ـ ٥، وانظر كتاب أخلاق النبى ﷺ للحافظ الأصبهانى ص ٢٨.

(٢) القلم، آية: ٤.

وقيل هو: رفقه بأمته. وهذه الأقوال يمكن أن تكون جميعا معنى للآية الكريمة، فلا شك أن أخلاق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت تمثل الإسلام والدين الذى جاءت أحكامه فى القرآن الكريم، فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ متبعا لأحكام القرآن، منفذا لأوامره متجنبا لنواهيه، ولا غرو أن تصف أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ خلق رسولنا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقولها: «**وكان خلقه القرآن**»[1].

ولا عجب أن يكون الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذا الخلق العالى فإنه اقتدى بهدى الرسل جميعا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما أمره ربه بعد أن ذكرهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2]. فإن الأنبياء قد وصفهم الله ـ تعالى ـ بالهداية والإحسان والصلاح والفضل على العالمين، والهداية إلى الصراط المستقيم، وبأنهم أوتوا الكتاب والحكم والنبوة، ثم اقتدى بهم رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هداهم وأخلاقهم ومناقبهم، ومن يتخلق بأخلاق هؤلاء الرسل الكرام جميعا، ويهتدى بهداهم فى أقواله وأفعاله وأحواله. لا شك أنه يكون على أعظم خلق وأكمل هداية[3].

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٢٦٧ وانظر: المسند لأحمد ٦/ ٥١، والمستدرك ٢/ ٤٩٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٣) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم ص ١٩٥ بتصرف د/ محمد أبو النور الحديدى، وانظر زاد المسير لابن الجوزى ج ٨ ص ٤٢٨، والدر المنثور للسيوطى ج ٦ ص ٤٩٩ وتفسير ابن كثير، الجزء الرابع، فى تفسير القلم، آية: ٤.

ومن كان هذا شأنه كان أسرع الناس فى الخيرات وأبعدهم عن المعاصى والموبقات.

ومن كانت هذه أخلاقه كان هو المثل الأعلى فى حياة المسلم، والقدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

خلاصة القول:-

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يكن إنسانا عاديا، وإنما هو شخصية فذة امتازت بقوى بدنية وعقلية ونفسية وروحية تكاد تكون خارقة للعادة، وهو بهذه الأخلاق العالية كان المثل الأعلى للمسلم، كما كان المثل الأعلى فى سلوكه الفردى، وفى قيامه بحق الله تعالى، وفى صلاته بأسرته وأصحابه وسائر أصدقائه ومعاشريه.

وفضلا عن ذلك فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان المثل الأعلى فى تضحيته من أجل الحق ومواجهته الصعاب التى تعترضه بقوة وبسالة.

وهو المثل الأعلى فى حربه وسلمه، فى أحكامه وقضائه، فى قيادته وسياسته، وفى زهده فى الدنيا وعزوفه عنها.

فكان العابد المتبتل، والقاضى العادل، والسياسى المحنك والهادى الرشيد، والأب الحانى، والمعلم البار، والقائد المظفر، والصديق الوفى، والزوج الرقيق، والنبى الصالح الذى لم يعرف الناس بشرا سبقه فى كماله، أو لحق به.

وهو بهذا كان القدوة الطيبة، والكمال المجسم والنموذج المحتذى.

وإذا أردنا تحديد مكانة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعلينا مراجعة القرآن الكريم، لمعرفة منزلةالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ضوء آياته البينات، وبدراسة آيات القرآن الكريم نجد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تتمثل وظيفته فيما يأتى:

١ ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المبين للكتاب العزيز. قال ـ جل شأنه ـ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

٢ ـ وضحت آيات القرآن الكريم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الأسوة الحسنة التى يجب على المسلمين اتباعها، يقول ـ تعالى ـ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٢).

٣ ـ وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ مطاع وجوبا، قال ـ جل شأنه ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾(٣). وقال ـ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٠.

تعالى ـ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[1]

٤ ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب سلطة تشريعية[2]. قال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[3].

تضمنت هذه الآيات الأمر بالإيمان بالله ورسوله، كما تضمنت مقتضى هذا الإيمان وهو اتباع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يأمر به ويشرعه، واتباعه كذلك فى سيرته وعمله، ولا يكفى الإيمان به بالقلب ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملى الكامل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه، وفيما يشرعه ويَسنه[4] ومما هو معلوم أن الله ـ تعالى ـ بعث رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكارم الأخلاق، كما ورد عنه فى الحديث المشهور، فقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«بعثت لأتمم محاسن الأخلاق»[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) دراسات فى الحديث النبوى وتاريخ تدوينه ج ١ ص ١٣ ـ د/ محمد مصطفى الأعظمى.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٧، ١٥٨.

(٤) انظر زاد المسير لابن الجوزى ج ٣ ص ٢٧٢، ٢٧٣ وتفسير ابن عطية ج ٦ ص ١٠٤.

(٥) رواه الإمام مالك! فى الموطأ، ولفظه: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق» ـ وقد قال فى شرح الزرقانى: إن الحديث مروى برجال الصحيح عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رواه أحمد وقاسم بن أصبغ، والحاكم وغيرهم، والرواية المشهورة: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

٥ ـ إن ما صدر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أقوال وأفعال فى حال من الحالات الثلاث التى بيناها فهو من سنته، ولكنه ليس تشريعا ولا قانونا واجبا اتباعه.

وأمّا ما صدر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أقوال وأفعال بوصف أنه رسول ومقصود به التشريع العام، واقتداء المسلمين به فهو حجة على المسلمين، وقانون واجب اتباعه[1].

٦ ـ فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المثل الأعلى فى طريقته فى الحياة، فكل ما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير مقصود به التشريع واقتداء الناس به لاهتدائهم. إلا ما صدر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودل الدليل الشرعى على أنه خاص به، وأنه ليس أسوة فيه فليس تشريعا عاما، كما وضحنا ذلك بالأمثلة فيما تقدم.

هذا وبالله التوفيق.

---

(١) انظر علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف ص ٤٤ بتصرف، وأصول الفقه للشيخ محمد أبو زهرة ص ١١٤، ١١٥ بتصرف..